

فيه عن المعنى أيضا ، لكن في مجال دعوة الخطيب أو المتكلم بعامية إلى اختيار ما هو مناسب للحالات المستمعين . وفي هذا يقول : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات » (١٢٥) . على أن الذي يبدو لنا أن هذه الفكرة تضرب بجلور أعمق في تاريخ الفكر العربي من عصر بشر بن المعتمر فقد لخصها مثل قديم ، هو « لكل مقام مقال » (١٢٦) ، لكن يبقى بعد ذلك أن بشرًا هو الذي فصل القول فيها وأعطاه الصيغة الواضحة التي ذكرناها .

ومن المصطلحات البلاغية المهمة التي سبق الجاحظ إليها ، وأعطى لها دلالتها التي لا يكاد يختلف فهم البلاغيين لها عما قاله هو من قبل ، الاستعارة ، وقد جاء ذلك في سياق شرحه لقول الشاعر :

يا دارُ قد غيرَها بِلأهـا كأنما بقلمِ محامها  
أُحربها عُمرانُ من بناها وكرُّ مُسأها على مغناها  
وظفت سحابة تغشاهـا تبكى على عراضها عيناها

فقد قال : « قوله : مُسأها ، يعني مساءها . ومغناها : موضعها الذي أقيم فيه . والمغاني : المنازل التي كان بها أهلوها . وظفت ، يعني ظلت . تبكى على عراضها عيناها : عيناها ها هنا للسحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه » (١٢٧) .

وعلى الرغم من تردد لفظ « المجاز » عنده في ثنايا شرحه لبعض النصوص من القرآن والشعر لم يذكر له مفهوما محددًا على نحو ما فعل في الاستعارة ، ولنتأمل الفقرة التي جاءت في الجزء الخامس من كتابه « الحيوان » وعنون لها بقوله : « باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل » يقول : « وهو قول الله عز

(١٢٥) السابق ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(١٢٦) انظر الحيوان تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ج ٣ الطبعة الثانية مكتبة الحلبي ، ص ٤٣ .

(١٢٧) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٣ .